بعيد الانتخابات النيابيَّة اللبنانيَّة

إما الهوية الوطنية... وإما الهويات القاتلة!

"تنسى الشعوبُ الهاويةَ التي كانت فيها، ولا تشعر بها إلا خلال مشقة الخروج منها".

(الروائي الفرنسي فيلسيان مارسو)

"العصبية تستخفي كما يستخفي المايكروب في أنحاء الدم، حتى إذا ما هادنه المرءُ ظَهَرَ بعنفه وقوته وانتشر بحماه".

(الشيخ عبد اللّه العلايلي)

ثمة نظرية في علم الفيزياء تُدعى «الفراغ الحامل». وهي نظرية كونيّة تقول إنّ العالم قبل أن يَخْلقه اللّه، سبقتْه قوانينُ الطبيعة التي جعلته «يَحْبل» بما سيكون.

حسناً. ربما كانت هذه النظرية صحيحةً في كل شيء: في النجوم والمجرات، في الطبيعة الأرضيّة بكل قاطنيها من أنس وجن، ونبات وحيوان، ويهود وغوييم... الخ، إلا في لبنان.

فهي هنا تبدو معكوسة تماماً. وذلك أنّ العالم، الذي هو في هذه الحالة لبنان، خُلق أولاً، ثم لحقتْه قوانينُ الطبيعة!

وهذا يعني أنّ الفراغ الحامل لا يزال، منذ تأسيس لبنان منذ نيف ونصف قرن، هو القاعدة والحقيقة، فيما وجود لبنان مجردُ ظلالٍ لهذا الفراغ.

وهذا يعني أيضاً أنّ الزمن مجمّد أو متوقف في بلادنا... أو أنّ هذه الأخيرة لا تزال تعاني أطولَ مخاضِ ولادةٍ في التاريخ (هذا إذا لم يكن الحمْلُ كاذباً في الأساس!)

ومَنْ لا يصدِّق فليس عليه سوى معاينة «عدة شغل» المعركة الانتخابيّة الأخيرة ونتائجها، ومقارنتها بأيّ معركة انتخابيّة يختارها طيلة السنوات الخمسين الماضية

لكنْ، ولتسهيل المهمة على صديقنا غيرِ المصدِّق والحائر، نقدِّم بعضَ العيِّنات المختارة لهذه «العدة»، وهي الخطاب أو العبارات ـ المفاتيح التي استُخدمتْ في الانتخابات: «التوضيب»، «التعليب»، «الأشباح»، «الفساد»، «سلاح المال»، «حروب العصبيّات الطائفيّة والمذهبيّة»، «الوصاية»، «السلبطة» الخارجيّة والإقليميّة.

.. وفوق تلة هذا الخراب، تتربّع تلك الأرقامُ التي تشير إلى أنّ غالبيّة اللبنانيّين صوّتتْ لصالح «خلّيك بالبيت» خلال يوم الانتخابات. هذا في العام ٢٠٠٠.

وأعوام أُخَر.. وهاكم الآن عيّناتٍ عن مناخات أعوام أُخر:

* سامي الصلح العام ١٩٥٢ (في **مذكرات سامي الصلح**): «أردنا تطبيقَ القانون ومكافحةَ الطائفيّة والتهريب والمقامرة، فحاربونا في الانتخابات. فكيف تريدون أن يتحقّق إصلاحٌ ونجاحٌ اذا لم نستأصل شفة هذه العلّة القاتلة ونقتلع جذورها؟».
* حسّان حلاق (في **التيارات السياسيّة في لبنان**): «... والجدير بالذكر أنّ الانتخابات التي حققتْ للرئيس بشارة الخوري ولايةً جديدة [أي في بداية الخمسينيّات أيضاً] لم تكن أفضلَ من الأولى، بل تردّت خلالها الأوضاعُ العامّة، وزادت سلبياتُ الطائفيّة، وعمّت البطالة، وتفشّت الفضائح، وتفاقمت الصراعاتُ الحزبيّة والعشائريّة، وعادت الانقساماتُ حول نظرة اللبنانيّين إلى كيان لبنان».
* مسعود ضاهر (في **لبنان الاستقلال ـ الصيغة والميثاق**) عن انتخابات السبعينيّات: «.. وكانت النتيجة الطبيعيّة للإدارة الطائفيّة للّعبة الانتخابية والسياسية أن انهارت الدولةُ اللبنانيّة وعمّت فيها الفوضى والمحسوبيّةُ والرشوةُ والفساد».
* القنصل البريطانيّ في بيروت سانو بعد انتخابات ١٩٢٩: «... والإدارة غير فعالة لأنّ مصروفاتها كبيرة. والسياسيُّون مسرورون بهذه الحالة لأنّهم يستطيعون إعطاء أيّ منصب لأيّ شخص يُرضي مصالحهم الخاصّة».

وماذا أيضاً؟

لا شيء. فالحديث عام ١٩٢٩ (حين جرت أولُ انتخابات) هو نفسه الحديثُ عن انتخابات عام ٢٠٠٠ وما بينهما. وربما يتكرّر هو نفسه أيضاً في العام ٣٠٠٠!. فحين يتجمّد الزمان، يتوقفُ المكانُ عن الوجود، ولا تبقى سوى قوانين الطبيعة. وهذه الأخيرة ليس فيها سوى الفراغ الحامل.

الحامل بماذا؟

الاجتهادات عديدة هنا. البعض يقول إنّها حامل بغودو، والبعض الآخر يقول إنّها حامل براجح (في مسرحية للأخوَيْن رحباني). لكنّ غالبية الشعب اللبنانيّ تقول إنّ ثمة توأماً في رحم الحمل: غودو وراجح معاً!

لماذا، كيف؟ الآن وبعد قول كل شيء عن الفراغ الحامل الدائم في لبنان، وبعد أن هدأ غبارُ المعركة الانتخابيّة الأخيرة، نستطيع القول إنّه يحق للطبقة السياسيّة الطائفيّة اللبنانيّة أن تنتشي بالفرح. فهي حققتْ بالفعل نصراً مؤزّراً ومشهوداً، والحقتْ بمشروع الدولة والوطن (مرةً أخرى) هزيمةً مجلجلةً ومدوّخة. ومع اكتمال صورة النصر، سيكون في وسع هذه الطبقة أن تتقدّم بصفوفٍ موحّدة لإخضاع الدولة (مجدداً) لمشيئتها.

لكنْ كيف حدث ما حدث؟

الرئيس سليم الحص تحدّث ملياً وبإسهاب عن دور المال والعصبيّات الفئويّة (يقصد المذهبيّة) في إفساد الحياة السياسيّة والمجتمع في لبنان. والمقرّبون من الرئيس لحود يشيرون إلى أنّ الشعار الأميركيّ الشهير: «إنّه الاقتصاد أيُّها الغبيّ» لعب الدورَ الأبرزَ في الانتصار

الانتخابيّ للطائفيّين: فالضائقة الاقتصاديّة ـ الاجتماعيّة لم تعد تطاق؛ والمعارضة «ابدعتْ» في استخدام المال السياسيّ للإيحاء للمواطنين بأنّ الترياق في يدها، وفي يدها وحدها.

ولكل مِنْ هذين التحليلين نصيبٌ من الصحة.

لكنّ العامل الأهمّ الذي أدّى إلى الانتصار الكاسح للطبقة الطائفيّة هو الدولة نفسها... لا بما فعلتْه فحسب، بل أيضاً بما لم تفعله.

فعلى الصعيد الاقتصاديّ، لم تَخْرج إدارةُ الرئيس لحود عن الإطار العام للخطة الاقتصاديّة التي وضعتْها حكوماتُ الرئيس الحريري في مجال الاستناد إلى قطاع المصارف والخدمات بوصفه دينامو الاقتصاد. ولم تحاول، ولو مجرد محاولة، دَفْعَ هذا الأخير في اتجاه قطاعات الإنتاج التقليديّة (الصناعة والزراعة) أو المتطوِّرة (تكنولوجيا المعلومات والبيوتكنولوجيا).

وفي المجال السياسيّ كانت موبقاتُ الدولة أعظم: فبدلاً من أن تضع الشعبَ والمجتمعَ المدنيّ في مواجهة الطبقة الطائفيّة، قامت بالانفصال عنهما ووضعتْهما أمام الخيار «المرّ» بين سلطة العصبيّات الطائفيّة وبين سلطة الأجهزة والاستخبارات.

وفوق هذا وذاك، فشلت السلطة فشلاً ذريعاً في تطوير خطاب وطنيّ قويّ يستند إلى الهوية الوطنيّة، للتصدّي للخطاب الاستنفاريّ الدمويّ الذي أطلقتْه الهوياتُ الطائفيّة والمذهبيّة.

وهكذا سقطت الدولةُ في الامتحان، حتى قبل أن تَدْخل فيه. وهكذا أيضاً كانت الطبقة الطائفيّة تُمْسك بزمام النصر حتى قبل أن تقترب جحافلُها من ساحة المعركة.

وعلى أيّ حال، لم يكن الوزير جورج قرم في حاجة إلى نفحة عبقريّة كي يتنبأ بما ستؤول إليه الأوضاعُ في البلاد؛ فالورطة واضحة لكلّ عين تريد أن ترى. فلقد كتب جورج قرم قبل أيام من انتخابات بيروت: «لا شك عندي أنّ لبنان سيتغلّب مرةً أخرى على مصاعبه. ولكنْ يتبادر إلى الذهن التساؤلُ حول حتميّةٍ تحمّل شعبنا مجدداً ثمناً فادحاً للغاية، نتيجةَ رغبة الطبقة السياسيّة الطائفيّة في الهيمنة المطلقة على مقومات البلاد، وفي تأمين حصة ماديّة متزايدة في لعبة شبكة المصالح».

إلى أين؟ حسناً. لكن إلى أين الآن من هنا؟

ببساطة، إلى الصراعات على جبنة المغانم والمنافع مرةً أخرى بين الطوائف والمذاهب، تمهيداً لحروب دمويّة جديدة بينها.

وهذه محصّلةٌ ساهمت الدولةُ إلى حدّ كبير في الوصول إليها. بيد أنّ هذه الأخيرة، على قصورها الشديد، ليست وحدها المقصّرة. فنحن أيضاً جميعاً نتحمّل قسطاً وافراً من المسؤوليّة. والـ «نحن» هنا تشمل: كلّ الفئات الاجتماعيّة التي عاشت حروبَ الطوائف والقوى ما قبل الحديثة ودفعتْ أكلافها الماديّة والنفسيّة الباهظة؛ كلّ المثقفين الذين نددوا بـ «المحرقة اللبنانيّة» وتبرأوا منها؛ كل القوى الحديثة (من مهندسين ومحامين وأطباء ومعلّمين وعمال ونقابات) التي وجدتْ نفسَها بلا وطن خلال حروب الطوائف وبسببها.

هؤلاء جميعاً لعبوا دوراً، وما زالوا، في مؤامرة الصمت التي تُرافِقُ التعبئةَ الطائفيّةَ والمذهبيّةَ الراهنة، والمحرقة الجديدة التي يُعِدّ لها أثرياءُ الحرب وأمراؤها الطائفيُّون.

وبعد سنوات، وربّما أقلّ، سيتساءل المؤرِّخون: لماذا لم تتحرّك هذه القوى لوقف اندفاع لبنان مجدداً نحو الهاوية؟ لماذا لم تتقدّم القوى الوطنيّة نحو إطفاء الحرائق الطائفيّة المتفرّقة، قبل أن تتجمّع هذه في حريق كبير جديد يُلهب لبنانَ برمّته؟

صحيح أنّ حروب السنوات العشرين الماضية أسقطت المشاريعَ الطائفيّة الانفصاليّة التي كانت أصغر من الوطن، وصحيح أنّ اللبنانيّين قبلوا عقلنة المشاريع القوميّة التي كانت أكبر من الوطن عبر إجماعهم على نهائيّة الكيان اللبنانيّ، بحيث لم يعد هناك الآن سوى مشروع الوطن نفسه. لكنّ الصحيح أيضاً أنّ هذا المشروع بدأ يتهاوى الآن، لأنّه لم يجد مَنْ يحمله بكفاءة لا في الدولة ولا في المجتمع.

وإذا ما تساءلت الفئاتُ الرافضة لتجدُّد الحرب: «ما العمل؟»، فسيأتي الرد سريعاً وواضحاً: الانتماء الوطنيّ هو المنقذ الوحيد من ضلال الحرب وبراثنها. والهوية الوطنيّة هي القابلة التاريخيّة الوحيدة لولادة السلام الدائم في بلد الحروب الطائفيّة الدائمة.

نعرف أنّ الوطنيّة اللبنانيّة تفاعلٌ كيماويّ مركب لا بسيط. ونعرف أنّ الوطن اللبنانيّ وطنٌ صعب حقاً. لكنّنا نعرف أيضاً أنّ الوطنيّة اللبنانيّة، كما القوميّة الأميركيّة، هي انتماءٌ يجب اختراعه باستمرار، ويجب إعادة تخيُّله بشكلٍ يوميّ، عبر توكيده بخطوات عمليّة وبشعائر وطنيّة. ونعرف أيضاً وأيضاً أنّ الوطنيّة، وهي ولاء فوق الانتماءات الطائفيّة، تحتاج إلى اقتصادات حديثة تجعل السوقَ المعيشيّة الموحدة سوقاً سياسيّة تنبثق منه الروحُ الجماعيّةُ للوطن.

ولأنّنا نعرف كل ذلك، فإنّنا لا نستسهل العقبات التي تعترض تبلورَ الهويّة الوطنيّة اللبنانيّة، ولا نستهين بالقوى والهويات الطائفيّة التي تتربص بها الدوائر. ولكنْ، في الوقت نفسه، ليس ثمة بديلٌ عن هذه الهوية سوى تجدّد حروب الهويّات الطائفيّة القاتلة والمذابح والتصفيات على «الهوية».

وهنا، حين يتم استحضار خطاب الهويّة الوطنيّة، يسارع الكثير من الطائفيّين إلى استحضار سويسرا بكانتوناتها وثرواتها ومصارفها كنموذج لحلٍ يجنّبهم كأسَ هذه الهوية الوطنيّة الفاضحة لكوارث هوياتهم القاتلة. لكنّ هؤلاء يتناسون أنّ سويسرا الراهنة لم تكن لتقوم لها قائمة، كما يقول البحّاثة الكبير الراحل ادمون رباط، «لولا تلك الحركة الفكريّة التي رافقتْ تطورَ الاقتصاد السويسريّ، والتي طورتْ علاقاتٍ تضامنيّةً عبر حدود المقاطعات وبين الطبقات المختلفة، فأدّت في النهاية إلى خلق جو صالح للعمل الوطنيّ المشترك». وبفضل هذه الوطنيّة السويسريّة التي تمّ «تخيّلها» و«استيلادها» من رحم حروب القوميّات والأديان السويسريّة، نجح السويسريُّون في تعطيل «لعنة المغناطيس» التي تصيب كلّ الدول التعدُّديّة الصغيرة حين تَجْذب صراعاتُها تدخُّلاتِ كل القوى الخارجيّة.

* * *

لقد أكدت الانتخابات الأخيرة في لبنان أنّ الهويّة الوطنيّة أمامنا ومحرقة الطوائفيّين وراءنا. وقد آن الأوان لكيْ نختار.

سعد محيو